الجغرافية البشرية وإسهاماتها في تشكيل مسارات العقل الإسلامي

المقصود بالحضارة الإسلامية،الناتج الروحي والمادي بابعاده الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية عن تفاعل النص الإسلامي مع عقل المسلم على مدار الحقب التاريخية ، وقد احدث تراكم هذا التفاعل نمط معين من الحياة الروحية والمادية على مدى إنتشار الدعوة الإسلامية ، نزل النص الإسلامي في واد غير ذي زرع ، في مكة التي كانت محطة تجارية ، وكانت لها سمعة روحية ، لأنهاارتبطت بتدفق زمزم وبناء الكعبة ، وعني تدفق زمزم الحياة المادية ، وجعلنا من الماء كل شيء (ص) سورة الأنبياء آية 30 ، وبناء الكعبة الحياة الروحية، لأن الكعبة تعني العبادة ، وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا " البقرة 127 – واتخذوا مقام إبراهيم مصلى آية 25 ، وبما أن الحضارة تنشأ في المناطق الزراعية، فإن مكة أصبحت مستوطنة روحية وتجارية ولم تبرز فيها حضارة زراعية لإنعدام الإقامة والإستقرار وظل رزقها يأتيها كملتقي طرق مابين اليمن والشام والعراق ومصر ، حيث ازدهرت الحضارات القديمة البابلية والسومرية والفيقنية والمصرية وحضارة الغزاة من روما وفرس وبيزنطين .

نزل النص الإسلامي في واد غير ذي زراع ، في وقت إندثر فيها النص الإبراهيمي القديم إلا بقايا من صحف موسي وعيسي عليهم السلام ، ولعل نزول النص القرآني في واد غير ذي زراع، أدى إلى صفاء هذا النص في العقل الإسلامي وأن يصبح العقل الإسلامي أي عقل النبي(ص) غفل النص ثم عقول الصحابة عليهم رضوان الله ، أرضا معرفية معيارية ، بمعني أن هذه العقول نسبيا خالية من المؤثرات والشوائب الحضارية ، لذا اقدر على الحفاظ على النص روحا ومعني ، لذا أصبحت مكة ثم المدينة " في الحالتين المهاجرين " الحاضنة للنص وبذلك أصبح عقل وذاكرة المهاجرين ، الحاضنة المعيارية والتي من خلالها تم بناء النموذج الحضاري الأولي والتي استلهمت النماذج المختلفة منها.

فإذا كان الوحي بدأ يتنزل على النبي (ص) ابتداء من 610م في مكة ، فإن إقامته في مكة لم تطل ، حيث هاجر إلى المدينة بعد ثلاثة عشر عام في 622م ، وتوفاه الله بعد سنوات عشر في المدينة أي عام 631م ، وكان الرسول (ص) قد ابدل اسم يثرب بالمدينة ، بل نهي اصحابه عن استخدام الأسم القديم يثرب ، كناية عن أنّ توطين المشروع الإسلامي عني بداية المدينة والمجتمع المدني ومن ثم فهي أحق بقاع الأرض باسم المدينة ، وفي المدينة كانت صحيفة المدينة ، التي مثلت دستورا وعقدا اجتماعيا ، قام على زعامة وقيادة الرسول (ص) ، حيث قعّدت الوثيقة للتعددية الروحية والاعتراف الآخر والعيش المشترك ومن هنا من هذه القواعد تبدأ المدينة، ولعلها أول وثيقة مكتوبة خططت وقعدت للمجتمع المدني ، وحتى وثيقة

الماجنا كارتا والتي صدرت عام 1215م جاءت بعدها بنحو ستمائة سنة ، ولكن الماجنا كارتا اقتصرت على تحديد سلطة الملك ولمصلحة البارونات " الطبقة العليا – أي الإقطاعيين " ولم تكن وثيقة تعاقدية اعترفت بالتعددية الروحية والاجتماعية كما هو الحال في وثيقة المدينة .

انتقل النبي (ص) وسلم إلى الرفيق الأعلي بعد عشر سنوات فقط من تأسيس الدولة ولم تتجاوز اضلاع الدولة حينها المدينة وبعض أطراف اليمن ومكة والطائف وربما لم يتجاوز مواطنيها المائي ألف نسمة – ولكن بدأ النموذج المعياري يستلهم مطلوبات التمدن منذ أيام النبي (ص) حيث اخذ الرسول في فكرة التوثيق والختم من الروم حينما قيل له أن ملك الروم لايقرأ الكتاب إلا أن يكون مختوما ، فاتخذ خاتما من فضة وكان فضة حبشيا [1]. ثم ضرب النقو سنة الأعاجم وأقرها الرسول الكريم، وكانت الدراهم كسروية والدنانير رومية [2].

وبعدها ضربت النقود في الدولة الإسلامية ، وكان أول من ضرب الدراهم مصعب بن الزبير أيام عبدالله بن الزبير ولكن كتجربة محددة ، إلا ان جاء عبدالملك بن مروان إلى حكام الدولة الاموية بعد عام الجماعة ، حيث ضرب الدراهم ذهبا وورقا ، كما اقام الحجاج دارا لضرب الدراهم على النمط الفارسي وجمع بيها الطباعين وكذلك ازدهر الخط والكتابة الذي تم قياسه قبل الإسلام على هجاء السريانية وتعلم طلائع كتاب العرب من اليهود منذ العهد النبوي [3].

والفائدة أن العقل الإسلامي مع توسع المد الإسلامي أخذ يستلهم الجديد والمقيد لإقامة صرحه الحضاري ، كما أن التحديات فرضت على هذا العقل الإستجابة للتحدي على غرار ما فعل النبي (ص) في غزوة الاحزاب ، باستخدام أسلوب حربي لم تعرفه العرب ممثلا في فكرة الخندق الواردة من سلمان الفارسي ، فالغيير والتجديد في اسلوب الحياة لم يقتصر في الفتوحات فقط على عنصر الأموال كما ونوعا ولا علي تعلم الخط وظهور الكتب والمصنفات ، وبروز العقل العلمي ، ولا فقط على اسلوب الحرب واتخاذ وسائل الحرب الجديدة من ميجانيق ودبابات وغيرها، ولكن حتى في طبيعة الحكم ، لأن نظام الحكم كما كان في صحيفة المدينة قام على الاعتراف بالتنوع الروحي وعلى الشوري كما حدث في ثقيفة بني ساعدة ، وفي التبادل السلمي للسلطة من أي بكر إلى عمر إلى عثمان إلى علي ، حيث قام على التفاكر وتداول الرأي والشوري لا على أساس العصبية أو الوراثة ولكن الحال تبدل

---

(1) البلادري ، ابوالحسن : فتوح البلدان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان 1412هـ – 1911م ص44

(2) المرجع السابق ص 452

(3) المصدر السابق 452–459

مع التفوحات حيث استلهم الفاتحون نظم الحكم من فارس وبيزنطة ، وبرزت فكرة العصبية والشوكة كأساس للمشروعية السياسية ونتاجها هو الملك العضود والإستبداد.

وإذا كان سيدنا عمر هو صاحب القول ، بأن العرب بمنزل الإبل لايصلحها إلا ما يصلح الإبل إلا أنه بعد أجيال اصبح العرب اصحاب داوين وقصور ونسوا تماما الإبل ، كما هو في الأندلس، وبرزت سبل كسب عيش جديد وتمدن وتحضر ، فيها ما فيها من الحمامات والقصور الشامخات والحشم والخدم ، وإن كان العرب يضربون بالخيام إلا أنهم بعد الفتوحات أصبحوا من بناة الدول والمدن ، فبنى الصحابي سعد الكوفة على مناطق عالية تجنبا للباب والبعوض ، وبني أبوجعفر المنصور بغداد مدينة السلام على ضفتى دجلة ومافيها من جسور وحدائق وقصور ومكتبات وبريد.

ودخلت الحضارة حتى على مسجد النبي (ص) الذي ابتني حيطان باللبن وعرشه من الجريد وركائزه من الجزوع ، ولكن مع الفتوحات وتدفق الأموال اتخذت فيه المقصورة على عهد مروان بن عبدالحكم ، وأرسل الوليد بن عبدالملك للفسيفساء والرخام وثمانين صانعا روميا وقبطيا ثم تعديلات مختلفة في كل القصور من رسوم الحضارة والأبهة ، والجمال وحتى الكعبة أعيد بناؤها مرات وقام المتوكل بتزيينها بالرخام والفضة والبس سائر حيطانها سقفها الذهب والفضة .

كما برزت لغات جديدة في خدمة الثقافة الإسلامية ، نثرا وشعرا واديا وفنا كالاردية والفارسية والسواحيلية والهوساوية ، والفلفدي ن والبربرية واللاتينية التي ترجم منها ابن الرشد الفلسفة اليونانية إلى العربية .

حدثت كل هذه الثورة الحضارية في أقل من جيل بعد وفاة النبي (ص) إذ فتحت دمشق 14 هجرية ، أي بعد أربع سنوات من وفاة النبي (ص) وفتحت القدس 17هـ وطلب اهلها من أبي عبيدة أن يأتي سيدنا عمر بن الخاب بنفسه لإستلامها وقد فعل وعبر غليها عبر دمشق ، وفتحت اصفهان وقم والبصرة وغيرها في سنة 23هـ في جيش من رواده أبي موسى الأشعري .

وواكبت الفتوحات الجغرافية فتوحات فكرية وروحية وأنتجت حركة التعليم الإسلامي الإنسان المتفوق الخلوق المنتج في إطار المعرفية المعيارية التي قامت على القرآن والسنة ، ولكن نواة المعرفة المعيارية نمت ككلمة طيبة ، نتاجها أشجار طيبة ، تسقى بما واحدة ولكنّها يتفاضل أكلها وتتفاضل ثمارها ، نتيجة لتفرق ورثة الارض من عباد الله الصالحين في بقاع الأرض ، مما أدى إلى بروز اروقة حضارية على إمتداد أرض الفتوحات ، سواء فتحت سلما كما

فتحت المدينة بالقرآن أو فتحت عهدا كما هو أمر البقط في أرض السودان أو فتحت جهادا وحربا كما في فتوح الشام ومابعدها.

ومن عظمة الرسول الكريم (ص) رسائله إلى الحكام وكان لكل رسالة طعمها ومزاجها، وكذلك فإن صلح الحديبية الذي كان في غاية التسامح عبر عن ثقة الجماعة الإسلامية في رجالها وأنهم أصحاب المستقبل ونص على أنّه من يأت من قريش مسلما يعاد إلى فتنة المجتمع الكافر. بينما نص. صلح نجران الذي أقامه الرسول الكريم مع نصاري اليمن على ألا يفتنوا عن دينهم ومراتبهم فيه ولا يحشروا ولا يعشروا ولا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا فيه) (4). بينما اختلف الامر في عهد سيدنا عثمان في الصلح مع رماة الحق ، حيث وصف مؤرخو الإسلام النوبة ، بأن سليهم لقليل ونكايتهم لشديدة ، وقول يزيد بن حبيب ليس بيننا وبين الأساود عهد ولا ميثاق وإنما هي هدنة وفي رواية أن المتوكل الزم النوبة بثلثمائة رأس وستين وزرافه على أن يعطوا قمحا وخل خمر وثيابا وفرسا ، واختلفت المعاملة مع نصاري بني تغلب حيث اسقطت عنهم الجزية وأخذت عنهم الصدقة ، وفي لبنان صولح الجراجمة على أن لا يؤخذوا بالجزية وان ينقلوا اسلاب من يقتلون من عدو المسلمين ، ورد عمر بن عبدالعزيز إلى النصاري جزءا مما اصبح مسجد دمشق وانتهي التفاوض بإرجاع كنائس غوطة دمشق (5). على أن يسكتوا عن كنيسة يوحنا التي اصبحت جزءا من المسجد الأموي (6).

---

(4) البلاذري ، ص 75

(5) المصدر السابق ص 164

(6) المصدر السابق ص 132

نمو الدوائر الحضارية المتوازية في إطار المعرفة المحورية :

الدائرة الحجارية :

وهي الدائرة الحاضنة للمعرفة المعيارية (مكة والمدينة) وفيها تنزل القرآن الكريم وتم تدوينه وتم تحصيل حديث الرسول الكريم ، وفيها تكاملت علوم الوحي ، على يد الطليعة المؤمنة وروادها أبي بكر وعمر وعثمان وعلى – واختص عثمان بتدوين المصحف وحرق المصاحف المخالفة ، عصمة للمصحف من التبديل والتغيير . وبرزت في المدينة حركة الفقه ومن روادها الإمام مالك بن أنس والحارث المحاسبي والواقدي الذي كتب في السير وفتوح الشام . كما برز الشعراء الذين وقفوا بين يدي الرسول (ص) وبدأوا قصائدهم بالنسيب ، علما بأن أصل النسيب عريق في الوينية العربية (7). مما يبرز تلاقح الأصيل والجديد ، مما يذكر بإشادة الرسول الكريم بحلف الفضول والذي خلاصته اجتماع الجميع على نصرة المظلوم ، دون النظر إلى هويته مسلما كان أو يهوديا أو وثنيا .

أرسل النبي الكريم حكم الشوري ومباديء الحكم الراشد ولكن حينما انتقلت السلطة إلى مراكز الحضارات القديمة استمدت منها عناصر الحكم العضود والاستبداد في دمشق وبغداد ، وتبادل الحال ترف ومجون ونسى الناس حشمة المدينة وتقشف أهل الصفة والأشعريين .

---

(7) عبدالله الطيب ، القصيدة المادحة ومقالات أخرى ، دار الاصالة ، الخرطوم ، الطبعة الثانية،2009،ص40

القرآن الكريم والقبس المحمدي (المعرفة المحورية)

↓

قد علم كل أناس مشربهم المشارب الحضارية الإسلامية

↓

الدائرة الحجازية   الدائرة الشامية   الدائرة العراقية   الدائرة الفارسية   الدائرة المغولية /   الدائرة   الدائرة

الدائرة   الدائرة   الأندلسية   النجدية   الأقليات

الـهندية   الـتركـية

المصرية   المغربية   السودانية   مندثرة   والجماعات الجديدة

الدائرة الشامية :

لعل خلاصتها فيما دار بين معاوية وعمر بن الخطاب ، حينما زاره في الساحة وطلع عليه معاوية في منتهي أبهة الملك والسلطان ، قال عمر (اكسرونه يامعاوية) فقال معاوية : يا أمير المؤمنين ، أنا في ثغر تجاه العدو وبنا إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة) [8]. والعمران هو رمز الحضارة وهي التفنن في النزف واستجادة أحواله والكلف بالصنائع وطاعة الشهوات ، أصبح الشام مركز ثقل الدولة الإسلامية وظل المسلمون أقلية في المجتمع الشامي المتنوع ، إلى لحظة سقوط الدولة الأموية ، وحينما كثر المسلمون في الشام إتسعت دائرة التناقضات مابين أهل سنة ونصاري وشيعة ويهود وعلويين ألخ.. وبرزت دول الطوائف كدولة آل حمدان في حلب والتي كانت في رباط وجهاد حتى أن سيف الدول غزا الروم اربعين غزوة، وكانت علوية المزاج ، وبرز فيها المتنبي وسيف الدولة، وكانوا على رقة في الدين وكانوا كذلك شيعة كما برز في الشام ابن تيمية جهبوذ الحركات السلفية ، ودخلها التتر والمغول وراج فيها فكر أبن عربي ، الأب الروحي لنظريات الفيض الإلهي – وظلت دوائر الشام تتقاطع وتتداخل سلما وحربا ، تواصلا وقطيعة، تجمعها خصائص وتفرقها خصوصيات ، الأيام دول ، بعضها لأهل السنة وبعضها ربما علويين أو شيعة أو مماليك أو تتر ولله في خلقه شؤون.

الدائرة العراقية

دائرة وسطية ما بين عروبية الشام وتناقضاتها المذهبية والروحية وعراقية الفارسية وروحها الشاهنشاهية ، وبرز في العراق ملوك بني العباس ، الذين تصاهروا مع الفرس والترك ، وبرز فيهم كيان الدولة البويهية الشيعية والتي مدح فيها المتنبي المتوفي 354هـ – عضد الدولة ركن الدولة البويهية وتغلبت الحالة الفكرية مابين الإعتزال والتفلسف كما هو في أيام المأمون، والإتباع والتقليد كما هو عند المتوكل – وبرز في بغداد أبوحنيفة النعمان ومدرسة الرأي وسند التصوف الشيخ عبدالقادر الجيلاني وابوالحسن الاشعري والجاحظ والغزالي ولكل مشربه ، ولم يرم أحدهم الآخر يكفر أو زندقة ، ومازال مذاهب وأفكار وأشعار بغداد في القرن الثاني والثالث والرابع الهجري تحكم العقل العربي والإسلامي.

الدائرة الفارسية :

وما ذكرت الدائرة الفارسية إلا وذكر الأدب الفارسي المرسل بلسان فارسي ومكتوب بلسان عربي كما هو عند الفردوسي والشيرازي وعمر الخيام ، ومن أشهر رجالها عضد الدولة السلطان الشيعي البويهي والذي زوج ابنته للخليفة العباسي الطائع بالله . وبرز من رجال فارس ابن سينا وابي فرح الاصفهاني وسيبويه واصبح للكيان الفارسي مشروعه ودولته على يد الصفويين واصبحت اللغة الفارسية لغة الأدب والفن في معلم آسيا الوسطي .

---

[8] زكريا بشير إمام ، جوانب فلسفية في مقدمة ابن خلدون ، الطبعة الثالثة ، 2013 – الخرطوم ص 91

متابعة دوائر الحضارة الإسلامية :-

الدائرة التركية :

ولفترة خضعت هذه الدائرة اللغة الفارسية ، وكان من أبرز رموزها مدفون قونية جلال الدين الرومي شاعر الحب الإلهي والجمال - وحضنت الدائرة التركية الدولة العثمانية التي حمت العالم الإسلامي من الصليبيين والتتر زهاء السبعمائة عام - وبرز فيها المهندس سنان وماتزال صروحها الحضارية شامخة من مساجد وقباب ومآذن لم تؤثر فيها ضربات الزمن - ووسع ملوكها كمحمد الفاح وسليمان القانون حدود الولة حتى البلقان والنمسا ، وبرزت فيها الطريقة النقشبندية التي تم تجديدها في فترة اتاتورك والغاء الخلافة على يد بديع الزمان النورسي ورسائل النور واليوم الحاضنة التركية تموج بالحركات الإسلامية التي ما أبرزها حركة الخدمة ورائدها الاستاذ فتح الله كولن .

الدائرة المغولية / الهندية :

برزت في منطقة لهند والسند (أي الهند وبنغلاديش) وباكستان اجزء من افغانستان وامتد عمرها لأكثر من ثلاثمائة عام ، أي اتبداء من عام 1526/ حتي 1857 - حيث أخذت تتخلل داخليا وتتعرض لضربات الإمبراطورية البريطانية والتي ابتلعتها في النهاية واتخذت في عقودها الأولي اللغة الفارسية ثم ما لبثت أن انتجعت لسانها الخاص ممثلا في الأدردوية ، والمؤسس الأول للدولة هو السلطان باير حفيد جنكيزخان من والدته وتيمور لنك من جهة والده ، وابرزت الدولة تقدما اقتصاديا وتعايش ديني وأنشأت شبكة طرق على طول الهند وبرزت فيها ضروب من الطرق الصوفية مثل البكناشية والنقشبندية والبرولوية وجاهدت ضد البوذية والروس والشيشان ومن اعظم ملوكها اورنجزيب الذي للاسف سجن والده وذبح اخوانه حتى يستقر الأمر له . ومن روائع ميزاثها الحضاري تاج محل الذي بناه السلطان شاه جيهان لزوجته وكذلك هي موطن البرلوية وهي ضرب من التصوف القائم على نظرية النور المحمدي وموطن الدهلوية وكذلك الديوبندوية التي ماتزال تحمل رايات الدعوة والإرشاد في ديويند في الهند ومن أبرز رجالها في العصر الحديث ابوالحسن الندوي ومع تقسيم الهند وخروج باكستان وبنغلاديش برزت نوي لكل هذه الحركات كالجماعة الإسلامية وطالبان والحركات الصوفية .

الدائرة المصرية

دائرة تشربت بالثقافة الإسلامية ومافيها من سماحة ، وفتحت عقلها وأرضها ومجتمعها لكل ممثلي الحضارة الإسلامية ودوائرها ، حيث كانت جزءا من الدائرة الأموية ثم العباسية

وحاضنة للفاطمية والسودانية على يد كافور الأخشيدي والكردية على يد صلاح الدين الأيوبي ثم المماليك الذين دخلوا مصر عبيدا ثم حكموها زهاء المائتي ونيف عاما ثم جزءا من الدولة العثمانية ابتداء من عام 1517 بعد معركة مرج دابق ، وظلت اقليما عثمانيا حتى بعد انتهاء غزوة نابليون 1798 ، حيث حكمها باسم العثمانيين الوالي محمد على واسرته حتى قيام الثورة المصرية في عام 1952 وتقلب الأزهر الذي اسسها الفاطميون م972 مابين مؤسسة علمية شيعية إلى مؤسسة علمية سنية وفي الفترة التي حكم فيها العثمانيون اصبح معظم علمائه على الطريقة النقشبندية ويدرس الأزهر كل المذاهب الإسلامية بما فيها المذهب الجعفري الاثني عشري ، وإن غلب على الأزهر المذهبين الحنفي والشافعي ، وبرز في مصر مؤرخون عظام كالمقريزي والسيوطي وشعراء مديح كالبوصيري وفقهاء كابن جماعة ورموز تصوف كاحمد البدوي والرفاعي ومجددون كالأفغاني ومحمد عبده وبرزت فيها كبري الحركات الإسلامية بقيادة الشهيد حسن البنا وتظل مصر الرافد الذثي لاينضب للعلوم الإسلامية والثقافية العربية بتنوعها وخصوصياتها.

الدائرة النجدية :

جاءت رد فعل لموجة الغرامطة في البحرين والتشيع في العراق وفشوا البدع والخرافات وكان من أكبر رموزها في القرن الثامن عشر الامير محمد بن مسعود والإمام محمد بن عبدالوهاب وفي القرن العشرين الأمير عبدالعزيز ال سعود واعتمدت مذهب احمد بن حنبل المتوفي241هـ وابن تيمية المتوفي 728هت وازدهر في ادبها تفسير ابن كثير 776- وابن القيم المتوفي 75ه وحجر العسقلاني – 852هـ - ومن المتأخرين ابن بازم 1419 والألباني 1420ـ وابن عيمثين 1412هـ - ولايوجد للدائرة حظ في الفنون والأدب والفكر وميراثها الفقه وخطابها التوحيد ومجابتها للبدع والتشيع – وقد انتشر خطابها بفضل سخاء علمائها في الخليج في إقامة المساجد والزوايا والأعمال الخيرية ، كما أن تدفق العمالة الوافدة ، جعل المزاج الديني للعمالة الوافدة من كل انحاء الدنيا بتكيف ومطلوبات الثقافة الإسلامية النجدية وماعاد موضع قدم في الدنيا إلا بلغته .

الدائرة المغربية :

الدائرة المغربية :اساسها الأدارسة حكما ونظما وعلما – وبرزت فيها حركة علمية اساسها جامعة القرويين ثم جامعة القيروان وبرزت فيها مدن ذات خصائص حضارية ورسوم معمارية- كالرباط ومكناس- ومراكش وفاس والقيروان والقسطينطية وعلماء كابن بطوطة الشريف والإدريسي وابن خلدون – وفيها تم تدوين المذهب المالكي محل مدونة بسحنون ورسالة ابن ابي يزيد القيرواني وبرزت فيها الطريقة الشاذلية – ابوالحسن الشاذلي – ثم

مؤخرا التجانية – طريقة السيد احمد التجاني ومن المغرب (المغرب الجزائر تونس – موريتانيا ، انداحت دوائر الثقافة الإسلامية إلى إفريقيا وبعض أوربا ولعل تجذر التدوين – والكتابة في العقل والكف المغربي، جعل المغرب مركزا للإشعاع والتواصل والنبوغ الحضاري .

لعل أهم مراكز الحركة العلمية في المغرب وهو تعبير ثقافي أكثر من كونه جغرافي ، لأن المغرب كيان ثقافي أسهم تكوينه ادريس الأول والثاني وعلى خطاهم عبدالله بن ياسين ويوسف بن تاشفين والمهدي بن تومرت وعبدالمؤمن وابن خلدون وإبن بطوطة وأبو الحسن الشاذلي ، والحسن الوزان وسحنون بن عبدالسلام التنوخي الذي رتب المدونة التي جمعها أسد بن فرات وأبومدين شعيب الأنصاري – وأبو الوليد محمد بن رشد ومن قبلهم على بن حزرهم الذي درس مباشرة على يد الإمام الغزالي والشيخ أحمد ماجد التجاني الخ .
ويمكن القول بأن الحياة الفكرية قامت أساسا على المذهب المالكي وشروحه مابين مدونة سحنون وبداية المجتهد لأبن رشد ورسالة ابن زيد االقيرواني وهذه الكينونة الثقافية كانت عابرة للحواجز العرقية والقبلية ومن الصعب محاكمتها أو معايرتها بمعايير الدولة القومية الوطنية ، كما أن القبائل المغربية والمكونات المغربية من أمازيق وطوارق ومجموعة المساونة والأشراف والشناقيط كانت تتحرك في إطار جغرافيا ثقافية / اجتماعية وهذا هو الذي جعل في المغرب وحدة فكرية روحية ثقافية وجعله مؤهلا للمشروعية السياسية المركزية كما عبر عنها الإدارسة والمرابطين والموحدين مما أدي إلى تكوين شخصية عربية / إسلامية متسامحة عبرت عن قيم العيش المشترك وازدهرت في مركزيتها ثقافات الأقليات الإسلامية وغير الإسلامية .

هذا الكيان الروحي / الثقافي أثر يعمق على الكيان الإفريقي السودان ، ومع إن السودان العربي لم يخضع لأي خلافة إسلامية شرقية باستثناء تواصله المغربي ، إلا أن حركة التدوين والتأصيل والإنتماء الإسلامي ، كانت أشد في السودان الغربي من السودان الشرقي والنيلي ، رغم أن السودان الشرقي لايفصله عن المجاز ومراكز الإشعاع الثقافي الإسلامي إلا البحر الأحمر ، الذي هو واصل وليس فاصل – ولكن الغرب الجغرافي ليس هو الحاسم في التكوين الثقافي وإلا فإننا نجد نسبة الإسلام في السنغال ومالي والنيجر وغيرها تفوق ال 90% بينما لا تتجاوز في مناطق كاثيوبيا وتنزانيا واريتريا وكينيا حاجز الخمسين في المائة باستثناء الصومال ، ولعل ذلك التمايز والتعامل يعود لأسباب :

منها أن الجوار الحضاري المغربي للسودان الغربي كان اشد مضاء وفاعلية من الجوار الحجازي والمدد المشرقي بخلافاته الأموية وعباسية وملوكية وعثمانية .
ثانيا : أن التواصل بين ضفتي البحر الأحمر ومكوناته كان سياسيا وتجاريا بينما كان الفاعل الثقافي والحضاري أقل تأثيرا ، نسبة لأن الحضور كان في غالبه سياسيا أو تجاريا ولذا كان ذو طبيعة مؤقتة فما أن تنتهي العوامل السياسية أو الأغراض التجارية حتى يعود اللاجئون السياسيون أو التجار وتبقى فقط بعض آثارهم بينما التواصل المغربي السوداني كان تواصلا حضاريا أدي إلى إنتشار الكتاب العربي في بلاد السودان وارتباط الأهالي بتراث الحرف العربي بل واتخذوا منه رمزا لكتابة لغاتهم ، حتى بلغ عدد اللغات الإفريقية التي كتبت بالحرف العربي ما يناهز الثلاثين / الفلاني ، ماديتقا ، سوننكي ، ولوفي ، نمي بينما في شرق إفريقيا برزت فقط اللغة السواحيلية والصومالية.
كما سبق السودان الغربي إلى قيام ممالك إسلامية كممالك غانلو مالي وسنغاي وصوكتو وارتبطت مثلا نشأة تمبكتو أهم عاصمة للثقافة الإسلامية في افريقيا في القرن الثالث عشر الميلادي بالطوارق واكتمل تأسيسها في عهد المرابطين وازدهرت في عهد ملوك صنغاي ، وبرز فيها جامع السونكري الذي أقيم على غرار القرويين والجامع الأزهر – وقد قضى اكبر عالم من السودان الغربي وهو أحمد بابا 14 عاما في مراكش عاصمة السعديين ، انصرف فيها للتدريس ابتداء من عام 1591 – ومن مؤلفاته التي بلغت زهاء خمسين مؤلفا كتاب فريد في بابه وهو الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان أو معراج العصود إلى حكم مجلوب السودان ردا على حكم استرقاق ولشعوب السودانية المسلمة تأسيسا على المذهب المالكي .
وما من دولة من دول السودان الغربي إلا يرجع الفضل في تأسيسها إلى رجل من المغرب ومن أهم العلماء الذين كتبوا في السياسة الشرعية محمد بن عبدالكريم المغيلي وكذلك من علماء المغرب الحاج أحمد بن عمر ابن محمد أخيت ومحمد بن أحمد وغيرهم وفي دولة الفور في غرب السودان النيلي يرجع أساسها غلى أحمد المعقور وسيليمان سولونج وهما من جذور مغربية ، ولمدة ثلاثة قرون ، اشعث الحركة العلمية في مدينة تنبكتو ، وبفضل العلماء القادمين من المغرب العربي ، اصبحت أكبر مركز اشعاع ثقافي في إفريقيا ماوراء الصحراء ، وكان الكتاب فيها بسعر الذهب ولا توجد مدينة إفريقية في السودان الشرقي أو النيلي فيها من المخطوطات كتنبكتو التي عكست النشاط الروحي والفكر للمدد المغربي .
ولعل الدور الذي قام به العلماء المغاربة في السودان لايقل عن دور البعوث الاستكشافية المسيحية والاستعمارية ولكن ضغوط الجيوش الغربية بمدارسها ومدافعها ولغاتها غطى جزئيا على جهود المدد المغربي– وما تزال آثار المغرب من جاليات قديمة اختلطت بالاهالي

حاضرة على امتداد السودان ، ويكفي أنه في جمهورية السودان للمغاربة ما يشبه الإقليم المسمى بشرق النيل حيث قامت فيه مدن كاملة للمغاربة والشناقيط والاشراف .

ومما قوى حركة المدد الروحي والفكري المغربي طريق الحج في المغرب إلى الحجاز ، وفي فترة الصليبيين في القرن الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين تمّ قطع طريق الحج عبر مصر ، فتحركت القوافل عبر الصحراء من مراكش وطرابلس وتلمسان إلى تنبكتو ثم كانوا في نيجيريا ثم أبشي في تشاد إلى الفاشر أو صحراء عيذاب إلى البحر الأحمر عبر مينائي سواكن وعيذاب إلى الحجار وقد وصف الرحالة المشهور ابن بطوطة ذلك .

ولم تك قوافل الحجاج مجرد تجمع حجيج وإنما كانت مدن متحركة ، فيها الأمراء وقواد والجند والعلماء والتجار والنساخ والوعاظ والرعاة والعمال والمغامرون وطلاب الرحلة ، وكانت تربط تجارة المحيط الأطلسي بالبحر الاحمر ، وفي الطريق يتخلف الآلاف وتضم الآلاف ولمدة شهور يحدث فيها تلاقح فكري وثقافي ، وعن طريق هذا التلاقح دخلت الطريقة الشاذلية ، لأن ابوالحسن الشاذلي كان يؤدي الحج عبر هذا الطريق ومات في صحراء حميثراء ، على بعد بضعة عشر ميلا من حلايب المنطقة المتنازع عليها بين مصر والسودان ومايزال مقامه شاخصا هناك. وبعد ابي الحسن الشاذلي وبعد نيف خمسمائة عام جاء رجل آخر وهو أحمد بن ادريسي الفاسي 1750- 838 (1) وهو من إشراف فاس وكون مدرسة فكرية روحية أثرت يعمق في ليبيا والسودان وتشاد وغيرها عن طريق تلاميذه وكان اشهرهم محمد عثمان الميرغني مؤسس الطريقة الختمية في السودان والسيد محمد على السنوسي مؤسس الطريقة السنوسية التي أصبحت حركة جهادية ومن أبرز رجالها عمر المختار وعشرات الحركات العلمية المنتشرة والتي تحمل شعارات وافكار وأوراد ابن ادريس ، حيث لم يقل تأثير ابن ادريس عن تأثير حسن البنا في القرن العشرين وإن اختلف تأثير ابن ادريس لأنه امتدت به الأيام إلى 88 عاما ، وأصبح له مئات الرسائل بينما كان حياة البنا قصيرة 42 عاما ، وقد مات ابن ادريس في صابيا باليمن يعد غربة أطول من غربة ابن بطوطة لأنه خرج من فاس عام 1797 ولم يعد لها أبدا إلا ان مات في صابيا بعد أربعين عاما من الجهاد الروحي والفكري .

وعلى خطي السيد / أحمد بن ادريس جاءت خطى تلامذه السيد / أحمد التجاني الذي انتشر تلاميذه ومريديه في كل السودان وأصبحت التجانية تمثل اكبر حركة روحية فكرية على امتداد السودان وانجبت مجاهدين كالسيد عمر الفوتي الذي قاتل الفرنسيين واحمد بمبا وغيرهم وغيرهم من تلامذة السجادة التجانية .

ولعل المغاربة هم أساس الوحدة الروحية القائمة على المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية والنفث الصوفي وساهم العلماء المغاربة في صياغة وتحرير العقل الإفريقي من رجس الأرواحية الإحيائية ، ومن جبروت كهنوت التعسفية والتوهمات الطوطمية التي تجذرت في الوجدان الإفريقي ومن ثقافة الخوف من الطبيعة ووطأت الأرواح وغضب الإسلاف والشعوذة والدجل والسحر وسلطان الخرافة ، مما أدى إلى تجفيف أو تقليل سطوة الجريمة والسرقة والسلب وخطف الإناث والزنا وسفك الدماء والسكر وغيرها من الموبقات وظاهر هذا المدد الشعبي المجتمعي كذلك مدد الدولة على عهد المرابطين والموحدين ، ويمتاز عصر المرابطين من الناحية الدينية بظهور أقطاب التصوف الأولين بالمغرب وأساتذته الطرقيين والذين نجحوا في توحيد المغرب الثقافي ككيان جغرافي دخلت فيه أقاليم الجزائر وبلاد الاندلس وتونس والصحراء وموريتانيا والسنغال ، وكان إيقاع المرابطين أشد في إفريقيا من الموحدين لانشغال الآخيرين بمجابهة الصليبيين في الأندلس ، وحتى الدولة الفاطمية التي خرجت من تونس وملكت مصر 969م والشام كان لها أثر كبير في نشر الإسلام في النوبة السودانية وقيام اول مملكة إسلامية في جمهورية السودان باسم دولة الكنوز إشارة لمؤسسها كنز الدولة وإن برزت الدولة في عهد الأيوبيين ولكن نواتها كانت في أيام الفاطميين ، كما أن الأزهر الشريف أكبر المنابر الإسلامية في العالم هو ثمرة من ثمرات الفاطميين .

غرس العلماء المغاربة المكون المفقود في الحركات الإسلامية وهو الحكمة والعقلانية ولم لا ؟ وقد اهتم المرابطون والموحدون بالعلماء بل إن "الموحدون" استقدموا أبوالوليد محمد بن رشد المولود عام 1126م من الأندلس لإصلاح التعليم بالمغرب والعقل المغربي يرجح الحكمة والعقلانية لذا فلا عجب أن عاد إنتاج المذهبين المالكي والاشعري – والمدد المغربي هو المسئول عن التكوين العقلي لسحنون وابن خلدون وابوالحسن الشاذلي واحمد التجاني واحمد بن ادريس ومدارس العرفان والحكمة .

ومن المحزن ان تحدث قطيعة بين افريقيا السياسية المندمجة في منظمة الإتحاد الإفريقي والمغرب بسبب الصحراء المغربية والخاسر الأكبر في ذلك هما إفريقيا وخصوصا افريقيا التي رضعت من ثدي الحكمة والعقلانية المغربية ولابد أن تتجاوز الارادة المغربية هذا التحدي وتعود المغرب كحاضنة لافريقيا سياسيا واجتماعيا وتأثيرا روحيا وفكريا وما ذلك ببعيد .

<u>الدائرة الأندلسية :</u>

هي دائرة ذات خصوصية ، لأنها نشأت في معقل أرض الكنيسة الكاثوليكية لذا كانت رأية الجهاد مرفوعة فيها من المهد إلى اللحد وادي جدارها الحضاري إلى بروز مدرسة الفلسفة والجهة بقيادة ابن رشد ، ومدارس التصوف المتأثرة باللاهوت المسيحي (ابن عربي) كما برز فيها فقهاء ومفسري قرآن كالقرطبي وابن حزم ، كما كانت جسرا للتواصل المغربي ، الأندلسي حيث دخلها المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين ثم الموحدون بقيادة المهدي محمد بن تومرت كما نهضت فيها الدولة الحفصية ثم ملوك الطوائف ، وازدهرت فيها الفنون ومظاهر الحضارة كما تعبر عنها مساجد وقناطر وحدائق قرطبة وغرناطة ، وأدي جوارها الحضاري إلى سماحة وإنفتاح من ناحية وجسارة وجهاد من الناحية الأخري .

دوائر الأقليات والدوائر الجديدة :

وكثير منها دوائر مغلقة ، بعضا عرف العربية ولكنه انكر كثير من جوانب العقيدة الفقه الإسلامي كطوائف الدروز والإسماعيلية وما شباهما وبعضها أدت العزلة الجغرافية والسياسية أن ينقطع عن التواصل مع تيارات الفقه والثقافة في حواضر العالم الإسلامي ، كما هو حال مسلمي تركستان الشرقية والمسلمين الذين كانوا قابعين تحت غير الشيوعية في آسيا الوسطي أو المنتسبين في مجاهل إفريقيا ، حث فقدوا تماما الذاكرة اللغوية والثقافية ولم تبق في حياتهم الدينية إلا رسوم مجترأة وابتلع شبابهم ثقافة العولمة واصبح لسانهم عجميا وأصبح التدين شأن أقلية من العجائز ، كما هناك دوائر إسلامية نشأت في قلب بلاد أوربا وأمريكا كالأفارقة الأمريكيين والسودان ، ومايزالون يتلمسون طريقهم للإندياح في الحضارة الإسلامية ، وقد ساعدهم على ذلك بروز المراكز الإسلامية التي اسسها المهاجرون والطلاب وغيرهم وعضوية هذا النادي من أقليات ودوائر جديدة لاتقل عن مائة مليون من المسلمين .

الدائرة السودانية :

والمقصود بها المنطقة الممتدة من جنوب موريتانيا على المحيط الأطلسي إلى العمق الإستوائي انتهاء إلى بلاد البحر الاحمر والمحيط الهندي وتدخل في الحزام مالي–10 مليون نسمة والنيجر–10 والسنغال–15 ونيجيريا–80 وتشاد–10 مليون نسمة وجوارهم انتهاء بالسودان– 30 وإثيوبيا –40 وجوارهما – وهي كتلة سكانية قد تقارب سكانها الثلاثمائة مليون من البشر ، وتأثرت هذه الدائرة بالدائرة المغربية " المذهب المالكي والتصوف " كما تاثرت بالدائرة المصرية والحجازية نتيجة للهجرات ومصاحبها من تاثيرات ثقافية ، وإن كان ابن خلدون قد وصف الزنج بأنهم أهل خفة وطرب فرقص ، فإن خفة العقول والطرب الرقص موجود في كل المجتمعات ، وقد خالطت هذه الخفة الثقافة الإسلامية الإفريقية ، فكان الإيقاع الديني المنفعل بالأهازيج والرقص الإفريقي – كما أصبحت المجتمعات الإفريقية أرضا

خصبة للتصوف والعرفان الموصول بالسيد عبدالقادر الجيلاني الشيخ احمد التجاني والسيد أحمد بن ادريس الفاسي ومدارس الفوديين التي اوقد نارها رجل إفريقيا الكبير الشيخ عثمان دان فودي ، وعلى ذات الخط ازدهرت زوايا التجانية والأدارسة والسنوسية والطريقة السمانية والختمية والمهدوية وفي العقود الأخيرة تلمست الجماعات السلفية والخطاب السلفي طريقه لإفريقيا .

هذه صورة تقريبية ونسبية ، وإلا فالصورة التراكمية لتفاعل النص الإسلامي مع الواقع والتاريخ الجغرافي أعقد من ذلك بكثير واكثر تكريبا ، كما أن هذه الدوائر متداخلة ومتواصلة وليست على قطيعة جغرافية أو تاريخية ، باستثناء المشرب الاندلسي الذي اندثر ولكن بقيت حركته الفكرية والروحية سارية في التمدن الإسلامي من خلال المخطوطات والمدونات المنسوبة لابن رشد والقرطبي وابن حزم ومظاهر الإسلام الشاخصة في قرطبة وغرناطة ، كما أن اشعار وفنون الأندلس ما تزال تفعل فعلها في العقل الإنساني والإسلامي ، ولعل مما يعكس ذلك النموذج اللبناني ، حيث تتداخل مجتمعات أهل السنة " احناف وحنابلة وشوافع وماتردية ومتصوفة الخ مع طوائف الشيعة اثني عشرية واسماعيلية ودروز مع الجماعات الإسلام المتأثرة بثقافة الحداثة والعولمة والمنسوبة للإسلام رسما واسما وليس فعلا.

ولعل من مقاصد الشريعة الإسلامية ، توسيع الفضاء الإسلامي ومد المجال الإسلامي وابلاغ الدعوة ، ولكن إبلاغ الدعوة الإسلامية في المجالين الروحي والاجتماعي / السياسي ، يحتاج لأن يتواصل مع قضايا العصر من شوري وحقوق إنسان وحريات وكرامة المرأة كما لابد من اعمال العقل النقدي والتحليلي في دراسة التاريخ الإسلامي لأن العقل المسلم مأزوم ومشروخ بصدوع حروب الفتنة الكبري وضياع الأندلس وزراعة اسرائيل وحروب الطوائف وصراعات أهل القبلة الواحدة ، وليس ثمة عائد من حروب الطوائف واشعال الحرائق وتعميق ثقافة الكراهية بين اهل القبلة لأن حصيلتها الفشل وذهاب الرياح ، فلا التكفير ولا حروب الطوائف ولا لغة التفجير والإنتحار سيؤدي إلى إندثار مذهب واحياء آخر ، من مطلوبات العيش المشترك بين اهل القبلة، الاعتراف بالآخر والتواصل ولعل التسامح والحوار كان في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي أكثر منه في خواتيم القرن العشرين وخواتيم الألفية الثالثة .

كما يفتخر العقل الإسلامي السني بالمذاهب الإسلامية وبابي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل، فإنه لايستطيع أن يخرج رجالا مثل أبن سيناء وابن النفيس والمتنبيء وسيف الدولة وابن عربي والطوسي وغيرهم من إطار الحضارة الإسلامية ، فالحضارة الإسلامية مزيج فريد اسهم فيه المتصوفة " الغزالي وابن عربي " ورفدته عبقرية المهندس سنان التركي ،

ومساجد تركيا شواخص على عبقريته ، وفتوحات محمد الفاتح ، ومجاهدات عثمان دان فودي ، وفتوحات عبدالقادر الجيلاني واحمد بن ادريس واحمد التجاني وغيرهم وغيرهم ، هذا التراكم الروحي والفكري الهائلي الذي هو تراكم للتواصل والتفاعل والتعاطي وخزاناته للتسامح والعيش المشترك وليس حائطا للقطيعة والتفاصيل والتنابذ – بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان – وهذا التراث الإسلامي بمشاربه هي هدية التاريخ الإسلامي للعقل الإسلامي لمزيد من التواصل والإنفتاح والإبداع – وهاهي فرص الإنفتاح والتسامح إمام الشباب الإسلامي للإنعتاق من التخلف والإستبداد والإنغلاق وعلى الأجيال الجديدة هضم التراث وإعادة انتاجه في أوعية العصر وتشكيل أضافتهم ومساهمتهم حتى يعود العقل الإسلامي رائد وقائدا في معركة الحضارة والبناء والتقدم .

من المراجع المهمة :

1. الهادي النويصري ، الموحدون ودورهم في نشر الثقافة الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء رسالة دكتوراه ، جامعة إفريقيا العالمية 2005م .
2. مهدي ساتي ، الإسلام ومظاهر التحول الاجتماعي في إفريقيا جنوب الصحراء وكذلك يوسف فضل حسن ، الكتاب العربي واثره في التواصل الثقافي مع إفريقيا ، دراسات إفريقية ، مجلة بحوث نصف سنوية ، جامعة إفريقيا العالمية .
3. حسن مكي : التواصل العربي الإفريقي على جانبي الصحراء ، دراسات إفريقية عدد 19 يونيو 1998م ، جامعة إفريقيا العالمية .
4. أوراق المؤتمر الدولي للإسلام في إفريقيا ، جامعة إفريقيا العالمية ، 2006م .

أ.د. حسن مكي محمد أحمد